

## نظام الحكم في الإسلام

لا خلاف في أن القرآن الكريم لم يورد بياناً عن نظام الحكومة التي يرتضيها أو يأمر بها الإسلام ، صحيح أن الآية الثامنة والثلاثين من سورة « الشورى » والآية التاسعة والخمسين بعد المائة من سورة « آل عمران » قد تحدثتا عن الشورى ، وصحيح أن في القرآن آيات تأمر بالعدل ، وتنهى عن الانحراف عنها ، لكراهية أو محبة . ولكن فيما عدا ذلك ، لا يجد الباحث من الأحكام ما يستطيع أن يقول معه إن الكتاب قد رسم خطأ ما للناس يلزمونه في اختيار حكامهم ، أو أرسى قواعد لضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وإظهار ما يجوز لكل منهما وما لا يجوز . ومن ثم حق للفقهاء منذ نزل القرآن ، ويحق لنا اليوم أن نتساءل : فيم سكوت القرآن عن بيان مفصل لنظام الحكم ؟

جرت أكثر الأقوال في الجواب عن هذا السؤال بأن مرد ذلك إلى كون الإسلام نظاماً صالحاً لكل زمان ومكان ، ونظام الحكم من أكثر الأنظمة الإنسانية تأثراً بالتطورات الطارئة التي تأتي بها الأيام ، والتي تثبت في البيئة . فما يصلح للناس في عهد قد يضيقون به في عهد ثان ، وما قد ينفعهم في بلد ، قد لا تستقيم به أمورهم في بلد آخر .

وهذا القول صحيح ، وقد أخذت به الشريعة ، فمن قواعد ما « تغير الأحكام بتغير الزمان والمكان » ، وقد قال ابن خلدون في مقدمته : إن أحوال العالم والأمم ، وعوائدهم ونحاهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر . إنما هي اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال . . .

وعلى الرغم من أن هذه الإجابة صحيحة في جملتها ، فإن ما صرف القرآن عن بيان نظام الحكم هو أسلوب الإسلام وطريقته في التشريع .

فأساس التشريع الإسلامى ، هو التربية الخلقية ، وإقامة رقابة الضمير الإنسانى ، بديلاً من رقابة الدولة بشرطتها وعسستها . فالأصل فى الإسلام ، هو محاسبة الإنسان نفسه مستهدياً بأحكام الدين ، ومنها الحديث الذى يأمرنا أن نعبد الله كأننا نراه ، فإن لم نكن نراه فهو يراقنا . فرقابة الحكومة ، أو رقابة القانون هما رقابتان احتياطيتان .

ولذلك حرص الإسلام على أن ينشئ مجتمعاً تحكمه الضوابط الخلقية ، فإذا نجحت التربية الخلقية فخلقت مجتمعاً يسود علاقات أفراد الصدق والأمانة ، والوفاء والصراحة ، وكراهية الظلم ، ونصرة العدل ، والمصارعة إلى الخير ، ومقاومة الشر ، فأى نظام حكم يقوم فى هذا المجتمع ، يتساوى مع أى نظام آخر ، فمجتمع كهذا ، لن يقبل أو لن ينبعث منه نظام ظالم ، أو حكومة فاسدة ، أو حكام تعوزهم القدرة أو الكفاية .

وقد لخص الحديث النبوى هذه النظرة الإسلامية إلى الحكم إذ قال « كيفما تكونوا يول عليكم » ، فنظام الحكم أشبه شئء بالسائل ، يوضع فى الإناء الملون ، فيأخذ لونه ، ذلك لأن نظام الحكم - على ما أثبتته التجارب - هو صدى أخلاق الشعب ، أما الدساتير والقوانين ، فلا تقيم حكماً ولا تغير من شئون الناس شيئاً .

لذلك احتفل الإسلام بأخلاقيات الحكم دون نظامه ، فعرض على الراعى وعلى الرعية فروضاً يعلم الإسلام أنها من الحكم جوهره ، وأنها إذا روعيت استقام شأن الرعية ، وصلاح أمر الراعى ، فإذا أهملت وقفت النصوص ، ومعها البنادق والمدافع ، والمحاكم والسجون عاجزة لا تقدم خيراً ولا ترد شراً .

وقد روى لنا تاريخ بريطانيا مثلاً رائعاً ومردعاً فى الوقت نفسه ، ما أجدرنا أن نتعظ به .

لقد فشت فى لندن منذ قرون جريمة « النشل » حتى أصبحت

خطراً داهماً هدد أمن الناس وأموالهم ، فصدر قانون قضى بعقوبة الموت شنقاً ، على كل من يرتكب هذه الجريمة ، ونفذت عقوبة الشنق علناً ، زيادة في الردع ، فتزاحم الناس في الميدان الذي أقيمت فيه المشنقة ، فانتهز النشالون الذين لم يضع القانون يده عليهم ، فأعملوا أصابعهم الخفيفة ، ومشارطهم السريعة في جيوب المشاهدين ، فنشلوا في ساعة ، ما كانوا يعجزون عن نشله في أيام .

وليس في الوسع أن نسرده نصوص الدستور الأخلاقي الذي فرضه الإسلام على الراعي ، ولكن نستطيع أن نذكر بعضها على سبيل المثال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والحلة والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته » ، وقال : « من ولي من أمر الناس شيئاً فاحتجب عن أولى الضعف والحاجة ، احتجب الله عنه يوم القيامة » .

وأمر الإسلام الولاة أن يحسنوا اختيار أعوانهم ، فقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « من استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هو أرضى الله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . ومن جهة أخرى فرض الإسلام على أفراد الرعية ألا يعينوا على الظلم فقد قال الرسول الكريم : « من أعان ظالماً بباطل ليدحض به حقاً ، فقد برى من ذمة الله ورسوله » ، وفرض عليهم أن ينصحوا للحاكم ، وأن يجهروا بالرأى في شئونهم ، فجعل خير الجهاد كلمة حق عند حاكم ظالم .

ولقد تسأل : ومن سيقوم بتربية الشعب ، ليكون له هذا الخلق القوى ، ثم ليسهر عليه ينميه ، ويمنع عوادي الزمن عليه ؟ والجواب عن هذا أن الله فرض على جماعة المسلمين أن يكون منهم دائماً طائفة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، فإذا نسيت الجماعة ذكرها ، وإذا صلحت أعانوها ، وإذا خافت قوا إيمانها ، وإذا اندفعت سدوها ، سدد الله خطانا .